حديث الصباح والمساء
جدارية هائلة

فاروق عبد القادر

حدث هذا فى حوارى الغورية، فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر: جمع الجوار فى السكن والصحبة فى المقهى بين أصدقاء ثلاثة: يزيد المصرى، الذى جاء القاهرة بعد أن هلك أهله أثناء اجتياح الحملة الفرنسية للإسكندرية، وعطا المراكيبى، الذى يعمل فى دكان يملكه رجل مغربى، زوَّجه ابنته وأورثه الدكان، والشيخ القليوبى، المدرس بالأزهر.. «وشهد الرجال نابليون بونابرت على جواده وهو يسير على رأس جنوده أمام المشهد الحسينى، وعاصروا تقلبات حملته، وخاصة ثورتى القاهرة.. وعاصروا بعد ذلك ولاية محمد على ومذبحة المماليك، والثورة التى أحدثها الوالى فى البلد وأهله..»، وفى أوقات متقاربة، تزوج الأصدقاء الثلاثة وأنجبوا البنين والبنات.

هكذا تبدأ ثلاث «شجرات عائلة» ـ بالمعنى المحدد للكلمة، حتى ليمكنك أن ترسمها باللون الأزرق، ويروح نجيب محفوظ ـ بدأبه المألوف ـ يتابع الفروع والأغصان، الأبناء والأحفاد (ومن الأحفاد من لايزالون يعيشون بيننا فى مصر أو خارجها). وهكذا أيضا ترتسم أمامنا جدارية هائلة من الشخصيات والأحداث، فى عدد قليل من الصفحات، لا يكاد يتجاوز المائتين، كل شخصية تضيف لمسة هنا أو أخرى هناك، والروائى ممعن فى حياده الظاهر، يرتب الشخصيات حسب حروف الهجاء، ولا ينسى هذا الموظف العتيق أن يكتب الأسماء ثلاثية ـ وأحيانًا رباعية! ـ حتى تكتسب شهاداتها الصدق والصحة، ويقف بها عند رقم سيتكرر كثيرًا، وستكون له آثاره على الجيلين الثالث والرابع: سبعة وستين وعليك ـ بعد أن خلط لك الأوراق

ـ أن تعيد ترتيبها فى سياق تتابعها الزمنى. ثم أن تسأل السؤال الأساسى: وأين يختبئ الروائى الماكر؟

ويحدث التمايز المحتوم منذ بداية البداية: أثناء جولات الغلامين الشقيقين داود وعزيز ـ ابنى يزيد المصرى ـ فى حوارى الغورية، ينقض عليهما جنود الوالى محمد على. أدركوا الأول وفر الثانى، وأرسل داود إلى المدارس ثم إلى باريس حيث درس الطب، ورجع من بعثته طبيبًا، سرعان ما حصل على الباشوية وأصبح من رجال العصر، على حين بقى شقيقه ـ الذى نجا من هذا المصير ـ ناظرًا لسبيل بين القصرين. وتأسس فى العائلة الواحدة فرعان، أحدهما يتميز بالثراء والنفوذ والعلم ويسكن السرايات فى الأحياء الراقية، والثانى يضطرب فيما يضطرب فيه أوساط الناس. بقيت بين الفرعين روابط المودة والقربى، لكن الوجدان الطبقى راسخ تحت السطح الساكن، ما أسرع ما يفصح عن وجهه الجهم المتعالى كالجدار.

ولئن كان هذا الفرع قد صعد بالعلم والثراء، فثمة من صعد بالثراء وحده: بعد موت امرأته الأولى، تزوج عطا المراكيبى من أرملة ثرية. وبسرعة مذهلة صعد من طبقة لطبقة.. بنى السرايا الضخمة فى ميدان خيرت، وابتاع عزبة فى بنى سويف «والحق أن الثروة كشفت عن مواهبه الكامنة وقوة شخصيته، كما هتكت حرصه وشحه وجشعه اللانهائى إلى الثراء، وبخلاف الظنون فرض سيطرته الكاملة على امرأته والمتعاملين معه، حتى شبهه الشيخ القليوبى بالوالى الذى جاء مصر جنديًا بسيطا، ثم تعملق فوق هامة إمبراطورية مترامية، بل كانت نهاية إمبراطورية بنى سويف خيرًا من نهاية الوالى ألف مرة..»، وفى ذريته كذلك اجتمع الفقر والثراء، فابنته من زوجته الأولى وأبناؤها انطفأ أملهم فى أن يرثوا شيئا من ثروته المترامية، وآلت كلها إلى أبنية من الزوجة الثرية.

وتمتد خطوط الفروع وتتشابك، ما بين الغورية وبيت القاضى وبين السرايات وميدان خيرت، جمعت بين الأبناء علاقات القربى والتزاور، وقامت بين فتيان وفتيات منهم علاقات حب اتسمت بما اتسم به الحب فى ذلك الزمان، أقل القليل منها انتهى إلى التحقيق، وأكثرها حالت الطبقية دون تحققها، ومن خلال هذه العلاقات ترتسم أمامنا صورة متكاملة للأوضاع الاجتماعية والطبقية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ـ فعدد ليس قليلًا من شخصيات هذا العمل لايزالون يعيشون فى قلب الحاضر منهم

بعض سادته، الذين أفادوا من «انفتاح السادات» حتى بلغوا قمة القمة، ولعل أبرز ما كشفت عنه تلك العلاقات أن الفروع الأرستقراطية قد لا تمانع فى أن تهب بعض فتياتها للأبناء النابهين من الفروع الأخرى، لكنها ـ أبدا ـ لا تزوِّج أبناءها من فتياتهم، حدث هذا فى جيلين متتابعين!

على أن أهم الملامح فى هذه الجدارية الرائعة يمثلها خطان يسيران معًا، جنبًا لجنب: الموقف من أحداث التاريخ المصرى فى أهم لحظات تحوله من ناحية، ثم انتقال التراث الشفاهى الغيبى من جيل لجيل، من الناحية الأخرى: إن أهم لحظات التاريخ المصرى تحدد سلوك الشخصيات، من حيث هى كذلك، ومن حيث هى دلالات لمواقف طبقية محدودة إزاء الأحداث. يسرى هذا على الثورة العرابية مثلًا: إن عطا المراكيبى ـ الصاعد بقوة وسرعة نحو القمة ـ قد حدد موقفه منها بوضوح قاطع: «لم تغز الثورة العرابية وجدانه من مدخل وطنى، ولكن من زاوية أملاكه وأمواله، فلما صعدت موجتها حتى ظن لها النصر المبين أعلن تأييده لها، تبرع بشىء من المال طاويًا آلامه فى صدره، ولما تكالبت عليها القوى المعادية ولاح فشلها فى الأفق أعلن ولاءه للخديو..»، ولما شعر الرجل بأنه يمضى نحو النهاية التى لا مهرب منها، قدم لابنه خلاصة تجربته، ودستور طبقته التى قامت أسسها ورسخت دعائمها:

«اعتل العربة وطنك.. وحذار من الخطب والشعر»!

لاعجب إذن أن أعلن ابنه ووريثه القوى عقب ثورة ١٩١٩ ـ انحيازه للملك لا لسعد ولا لعدلى، وقال بأفصح بيان: «لقد انتهت اللعبة، فلا تتصور أن الإنجليز سيغادرون مصر ولا تتصور أن مصر تستطيع أن تعيش بغير الإنجليز...»، لا عجب ـ مرة ثانية، فنحن إزاء كاتب يؤمن بالوراثة ودورها إيمانًا كبيرًا، ويتابع ـ بصبر غريب ـ انتقال ملامح الجدات والأمهات للحفيدات والبنات ـ أن كان من أبنائه ضابط شرطة اشتهر فى عهود الانقلابات السياسية بالعنف الشديد فى مواجهة المتظاهرين، وكان هذا العنف خير تزكية له عند القصر والإنجليز ولا عجب ـ مرة أخيرة ـ أن يرتحل أبناء هذا الضابط الثلاثة بعد موت عبد الناصر: اثنان إلى أمريكا والثالث إلى السعودية.

على الجانب الآخر، تحمس الشيخ معاوية القليوبى للثورة العرابية «ومال إلى

تيارها وأيدها بالقلب واللسان، ولما فشلت الثورة واحتل الإنجليز مصر، قبض عليه فيمن قبض عليهم، وقدم للمحاكمة، فقضت عليه بالسجن خمسة أعوام..» صحيح أن الشيخ خرج من سجنه ليجد نفسه غريبًا فى دنيا غريبة، ولم يجد عينًا تنظر إليه بعطف، لكن الصحيح كذلك أنه ذاب فى قلب التاريخ وتخلل نسيجه، وأصبح فى الضمير الشعبى بطلا، يضاف فى هذا الوجدان إلى عنترة والهلالى وآل البيت.

إنما من أحفاد الشيخ معاوية سيتألق شباب وطنيون فى ثورة ١٩١٩، ونجوم من ضباط تموز (يوليو) ١٩٥٢، وشهداء فى المعارك التى تلت قيامها حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣.

عن هذا الخط يمكنك القول إن نجيب محفوظ قدم لونًا من التاريخ الفنى لأهم نقاط التحول فى تاريخ مصر المعاصر، من مجىء الحملة الفرنسية حتى مصرع السادات، تاريخ لا ترويه وقائع جافة، بل نسيجه شخصيات من لحم ودم ووراثة واكتساب وتعليم ومصالح، عاشت متأثرة بهذه النقاط الفاصلة، تصوغ حياتها فى ضوء نتائجها، وهى تدرى أو لا تدرى. فى هذا التاريخ لا يبدو الروائى المتظاهر بالحياد محايدًا، لكنه يهب أفضل المصائر لهؤلاء الذين انحازوا للثورة الوطنية فى تجلياتها المتتالية، وأسوأ المصائر ـ خارج أرض مصر غالبًا للأجيال الجديدة التى طحنها ٥ حزيران (يونيو) وتهاوى الأحلام ـ لمن اختاروا الوقوف على الجانب الآخر من الخندق، آية كشف الروائى عن وجهه الحقيقى يتمثل فى تأريخه لثورة ١٩١٩ وزعيمها، هذا الكشف يحدث من وراء أقنعة متعددة للشخصيات التى عاصرتها، ولعل أصدق الكلمات وأقربها إليه: «بلغ قمة انفعاله فى ثورة ١٩١٩، وعشق زعيمها، واشترك فى إضراب الموظفين، وحافظ على ولائه للزعيم رغم انشقاق أهله العظام عليه، وتابع خليفة الزعيم ـ مصطفى النحاس ـ بكل وجدانه، ووزع الشربات يوم عقد المعاهدة، وأيد الزعيم بقلبه ضد الملك الجديد... إلخ».

يبقى الوجه الحقيقى لهذا الروائى، دائما، يحوم حول تمثال سعد زغلول!

الخط الثانى يبدأ من ذات البداية: وُلدت جليلة فى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وتزوجت الشيخ معاوية الذى كان قد بدأ حياته مدرسا فى الأزهر الشريف، وقد عرفت بأنها «موسوعة فى الغيبيات والكرامات والطب الشعبى، وكأنما أخذت

من كل ملة بطرف، بدءًا من العصر الفرعونى، ومرورًا بالعصور الوسطى، وحاول الشيخ معاوية ما استطاع أن يلقنها أصول دينها، ولكنه من خلال المعاصرة الطويلة أخذ منها أكثر مما أعطاها..»، وقد عمَّرت جليلة حتى جاوزت المائة بعشرة أعوام، عاصرت فيها فترة من حكم محمد على، وعهود إبراهيم وسعيد وإسماعيل وتوفيق والثورة العرابية وثورة ١٩١٩، ولم يرسب فى أعماقها زمن كالثورة العرابية التى اعتبرت زوجها من أهم رجالها، وما أكثر ما روت من بطولاته وسجنه لأحفادها، وذهب بها الخيال فى ذلك كل مذهب..».

من بين أبنائها وبناتها ورثتها راضية، هى التى تمثلت تراثها ورعته وأضافت إليه، هى الأم والجدة المؤسِّسة، وتكاد أن تكون أكثر الشخصيات حظًا من عناية الكاتب: «إن ما تلقته عن أبيها الشيخ لا يقاس بما تلقته عن أمها من الغيبيات والخوارق وسير الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعفاريت، والأرواح الساكنة فى القطط والطيور والزواحف، والأحلام وتأويلها، وقراءة الطالع، والطب الشعبى، وبركات الأديرة والقديسين والقديسات..»، هى الوجدان الشعبى الحافل بكل الموروث، وهى التى انطبعت على صفحتها أهم الأحداث: الثورة العرابية وثورية ١٩١٩، «وسجلت فى قاموسها الخالد وليًا جديدًا اسمه سعد زغلول..»، ومثل أمها عمرت راضية حتى جاوزت المائة، وفى أثناء ذلك تحول الأبناء إلى أسر وشب أحفاد جدد.. «وسمعت بولى آخر اسمه مصطفى النحاس، وأخيرًا آخر الأولياء الذين عاصرتهم جمال عبد الناصر الذى رفع أحفادًا لها حتى السماء، وخفض أعزة منهم إلى الحضيض أو السجن، فراوحت بين الدعاء له، والدعاء عليه!».

من أبناء راضية وبناتها كان قاسم آخر العنقود، وكان أخلص المستمعين لأمه، وأصدق التابعين لها فى أحلامها وجولاتها الروحية بين الجوامع والأضرحة، «وكلما جمح به الخيال وجد عندها الأذن الصاغية والقلب المصدق..»، منذ صباه تطلع نحو بنات الأسرة الجميلات بشهوة مستوفرة قبل أوانها، مع تدين مبكر وصلاة وصيام، فتعذب دائما بين الحب والعبادة، وسقط ذات يوم مغشيًا عليه، قال الطبيب إنه صرع خفيف، لكنه تطور ليصبح «اتصالًا بأهل الغيب..» وهجر قاسم المدرسة باستهانة، وراح فى الحوارى، أو يطوف ببيوت إخوته وأخواته وأقاربه، وفى كل موقع يتناول المشروبات وينثر كلماته الغامضة تنبؤًا عن المستقبل كما يتراءى له.. وتجىء

الحوادث مصدقة لنبوءاته حتى عرف بينهم بالشيخ. ومن شيخ إلى وليٍّ «كأنه خلق للولاية.. بدل بملابسه الأفرنجية الجلباب والعباءة والعمامة وأطلق لحيته وقسَّم وقته بين استقبال زواره ـ الذين يحملون إليه الرزق الوفير ـ والعبادة، حتى أمه ـ الأستاذة العريقة ـ أصبحت من تلامذته ومريديه، وتزوج واحدة من بنات أعمامه وهو فى الثلاثين وأنجب ابنًا واحدًا».

هذا خط ينسحب وتلاشى مع خطوط الضياء والعلم، ليس عبثًا إذن أن يكون هذا الابن الوحيد ـ وقد أسماه أبوه النقشبندى! ـ كامل الصحة والذكاء، تخرج مهندسًا فى عام النكسة، وأرسل فى بعثة إلى ألمانيا الغربية قبيل السبعينيات، وكانت حال البلد قد أرهقت صحته النفسية فقرر الهجرة، فالتحق بعمل فى مصنع للصلب بعد حصوله على الدكتوراه، وتزوج من ألمانية، واستقر هناك بصفة نهائية، «حزنت أمه لذلك أما قاسم فلم يكن يحزن لشىء»!

وقارئ نجيب محفوظ يعرف أنه لا يخلو من قسوة ـ وهل خلت منها الحياة؟ ـ وقد يتذكر مصائر بعض شخصياته النسائية بوجه خاص، على رأسهن عندى عائشة زهرة بين القصرين، الجميلة المتفتحة للحب، وما كانت فيه من تزامل. ونفيسة التى جدلت خيوط صنعتها من الدمامة والشبق واليأس والتطلع فى «بداية ونهاية»، أضيف إليهما هنا شخصيات عديدة: صديقة، الجميلة المنتحرة فى «عز الشباب واليأس والألم»، وبدرية التى سقطت ضحية للصرع إبان تفتحها كالوردة، وجميلة التى فقدت أسرتها كلها «بقضاء لا راد له»، وحبيبة التى ترملت وهى دون العشرين، ثم فهيمة، الجميلة الثرية خريجة «الميردى دييه» التى يحاكى مصيرها مصير عائشة، إن لم تفقها تعاسة والتى فقدت ذريتها بعد أن اكتمل لها الشباب والأمل.

وقد لا تملك ـ مثلى ـ أن تحبس هذا السؤال: لماذا يحتفظ نجيب بهذه المصائر التعسة لبطلاته الجميلات المتفتحات للحب والحياة؟ لماذا يجعل فى انتظارهن دائما الثكل والترمل، الموت والجنون، وفى أخف الحالات العقم والعنوسة؟

لا فن بغير شغل وصنعة، وهنا شغل وصنعة: «حديث الصباح والمساء» إضافة ثمينة لقلب عالم نجيب محفوظ هى تمت بصلة واضحة إلى الثلاثية والباقى من الزمن ساعة وملحمة الحرافيش، من حيث هى رواية أجيال وتمت من ناحية أخرى

بصلة واضحة إلى «ميرامار» و«المرايا» من حيث هى رواية شخصيات، أثمن ما فيها تفاصيل تلك الجدارية الهائلة، والتى تجد فيها ـ كلما أمعنت النظر ـ اللون الواحد، فى درجاته كلها، يشغل مكانه مع بقية الألوان، لا يتجاوز حيزه المحدد له فى إحكام هندسى دقيق.

أى صباح وأى مساء؟

صباح التاريخ المصرى الحديث ومساؤه؟ صباح الميلاد ومساء الموت؟ ليست هناك كلمة واحدة أخفيت بحذق بين المربعات البيض والسود.

حديث الصباح والمساء، هو حديث الحياة الممتلئ بتناقضاتها التى لاتنى تتفاعل ملقية بحركة التاريخ إلى أمام، كلما أسفر مساء عن صباح، وأفضى صباح إلى مساء.

عن «الأفق» ـ قبرص

٢٥ يونيو ١٩٨٧.